٣

تربية الأخلاق بالقدوة الحسنة

أولًا: الاقتداء برسول الله ﷺ خير قدوة.

ثانيًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة في المنزل.

ثالثًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة في المدرسة.

رابعًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة في الرفقة الصالحة.

خامسًا: وسائل الإعلام وما تقدمه من قدوات وأثرها على الأخلاق.

الفصل الثالث
تربية الأخلاق بالقدوة الحسنة

مقدمة:

تعد القدوة من أنجح أساليب التربية، وأوقعها أثرًا، وذلك لاتفاقها مع طبيعة النفس البشرية، ومع فطرة الإنسان، ومع حاجته وميله للتقليد والمحاكاة، ولسهولة اكتساب الخبرات من خلالها، ولكونها متجسدة وماثلة أمام المتأثرين بها.

وللقدوة تأثيرها الإيجابى، أو السلبى، تبعًا فى ذلك لاختلاف نوعيتها، حسنة كانت أم سيئة، حيث لا يقتصر التقليد على حسنات السلوك، بل قد يتعداها إلى غيرها؛ ولذلك من الخطورة بمكان ظهور المساوئ فى سلوك من يمثل القدوة، وظهور مساوئ الأخلاق بدلًا من محاسنها، والرذيلة بدلًا من الفضيلة.

وأكد الإسلام القدوة الصالحة والأخلاق الفاضلة أيما تأكيد، لما

لذلك من آثار طيبة فى تنشئة الأجيال التنشئة السليمة، وتحقيق الخير لهم ولغيرهم، وانعكاس ذلك بالخير العميم على المجتمع كل المجتمع والأمة كل الأمة، فدعانا الحق تبارك وتعالى إلى الاقتداء بخير قدوة وخير أسوة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب:٢١). وروى انس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا[١٦٥]، وروت عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن[١٦٦].

ودعانا رسول الله ﷺ للتخلق بالأخلاق الحسنة، وأن نستن بالسنة الحسنة، لننال أجرها وأجر من تأسى بنا فى ذلك وعمل بها، وأن نتجنب الأخلاق السيئة والسنة السيئة، حتى لا نحمل وزرها ووزر من اقتدى بنا فيها وعمل بها، فعن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (من سن فى الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء)[١٦٧]. وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[١٦٨].

وهكذا، فعلينا أن نقتدى بالقدوة الحسنة، وأن نكون لأبنائنا قدوة حسنة، وأن نجنبهم القدوات السيئة، وجلساء السوء، ليتربوا التربية الحسنة، متخلقين بالأخلاق الحسنة.

لذلك جاء هذا الفصل- الثالث- متناولًا تربية الأخلاق بالقدوة الحسنة، ومن المحاور التالية:

- الاقتداء برسول الله ﷺ خير قدوة.
- التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى المنزل.
- التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى المدرسة.
- التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى الرفقة الصالحة.
- وسائل الإعلام وما تقدمه من قدوات وأثرها على الأخلاق.

أولاً: الاقتداء برسول الله ﷺ خير قدوة:

لنا فى رسول الله ﷺ خير قدوة وخير أسوة، نتأسى بها فى كل شئون حياتنا، لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب:٢١). ذلك الرسول الكريم الذى مدح الحق تبارك وتعالى خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤)، وأمرنا سبحانه بأن نتأسى به لأنه خير أسوة، وخير قدوة.

فرسول الله ﷺ بحق هو خير قدوة وخير أسوة نتأسى به فى كل شئون حياتنا: فى سلمنا وفى حربنا، فى أعمالنا وفى تعاملاتنا، مع

زوجاتنا، ومع أبنائنا، مع الأقرباء، ومع الغرباء، مع الأحباب، ومع الأعداء، فى أمور الدنيا وفى أمور الدين.

وقد تعلم الصحابة رضى الله عنهم أمور دينهم وأمور دنياهم منه ومقتدين به ﷺ، فكان يصلى ويأمرهم بأن يقتدوا به فى صلاتهم، فقال فيما رواه مالك: (صلوا كما رأيتمونى أصلى)[١٦٩]، وقد صلى رسول الله ﷺ مرة على المنبر، ليشاهده الجميع وليقتدوا به. حيث روى أبو حازم قائلًا: لقد رأيت رسول الله قام على المنبر فكبر، وكبر الناس وراءه، وهو على المنبر، ثم ركع وهو عليه، ثم رفع فرجع القهقرى حتى سجد فى أصل المنبر، ثم عاد- فصنع فيها كما صنع فى الركعة الأولى- حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس فقال ﷺ: (يا أيها الناس إنى صنعت هذا لتأتموا بى، ولتعلموا صلاتى)[١٧٠].

وأدى ﷺ مناسك الحج، وأمر صحابته بأن يقتدوا به قائلًا: (خذوا عنى مناسككم)، فقد روى جابر أن رسول الله ﷺ قال فى حجته: (لتأخذوا عنى مناسككم، فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه)[١٧١].

وكان الصحابة ينقلون لغيرهم ما تعلموه منه ﷺ بالقدوة، فروى أن معاوية توضأ للناس كما رأى رسول الله ﷺ يتوضأ[١٧٢]... وروى أن ابن عباس قال: أتحبون أن أريكم كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فدعا بإناء فيه ماء، ثم توضأ أمامهم بوضوء رسول الله ﷺ[١٧٣].

بل وهو ﷺ خير قدوة وخير أسوة لنا فى كل شئون الحياة، فهو القدوة للآباء مع أبنائهم وكيف كان يعامل أبناءه وبناته، وهو القدوة للأجداد مع أحفادهم وكيف كان يعامل أحفاده، وهو القدوة للأزواج مع زوجاتهم وكيف كان يعامل زوجاته، وهو قدوة للأصدقاء مع أصدقائهم وللأصحاب مع أصحابهم وكيف كان يعامل أصحابه، وهو قدوة للقادة والرؤساء والرعاة مع مقوديهم ومرءوسيهم ورعيتهم وكيف كان يعامل مقوديه ومرءوسيه ورعيته، وهو قدوة فى المنزل، وقدوة فى المسجد، وقدوة فى السوق، وقدوة فى الحرب، وقدوة فى السلم، وقدوة فى الاتفاقيات والمعاهدات، وقدوة فى زيارة المريض، وقدوة فى تشييع جنازة الميت، وهو قدوة فى نومه وفى يقظته، وقدوة فى أكله وفى شربه، وقدوة فى دخوله وفى خروجه، وقدوة فى فرحه وفى حزنه، وقدوة حتى فى دخوله الخلاء وفى خروجه منه... نعم هو خير قدوة وخير أسوة فى كل شئون الحياة، وصدق قول الحق فيه إجمالًا وتفصيلًا، حيث قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١).

ثانيًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى المنزل:

إن من أعظم أساليب تربية الأبناء، أن يرى الأبناء آباءهم قدوة فى أخلاقهم، قدوة فى أقوالهم وأفعالهم، قدوة فى سكناتهم وحركاتهم،

قدوة فى كل سلوكياتهم وأخلاقهم، لأن الولد ينظر إلى والده على أنه مثله الأعلى، فهو يحاكى فعله ويقلد سلوكه.

فإذا رأى الولد أباه صادقًا سينشأ صادقًا، وإذا رآه كاذبًا سيكون كاذبًا، وإذا رأى أباه كريمًا سيكون كريمًا، وإذا رأى أباه بخيلًا سينشأ بخيلًا، وإذا رأى أباه أمينًا سيتربى على الأمانة وتخلق بها، وإذا رآه خائنًا غادرًا، تنشأ الولد على الخيانة والغدر.

وإذا رأى الولد أباه دائمًا يلهج لسانه بذكر الله من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير واستغفار، فإنه ينشا ذاكرًا لله، وإذا رأى أباه يكثر من الصيام أو من قيام الليل أو الصدقات فإنه نشأ على حب الأعمال الصالحة، بما فيها من صيام وقيام وصدقات.

وهذا بخلاف الولد الذى ينشأ فى بيئة فاسدة، فيجد أباه لا يسمع إلا الغناء ولا يلهج لسانه إلا بالأغانى والسب واللعن، ولا يذهب إلا لأماكن الفسق والفجور، فإنه بلا شك سيتعلق قلبه بتلك الأماكن وبتلك المعاصى، والولد حينما يسمع من أبويه كلمات الفحش والسباب، وألفاظ الشتيمة والمنكر، فإنه- لا شك- سيحاكى كلماتهم، ويتعود ترديد ألفاظهم، فلا يصدر منه فى النهاية إلا كلام الفحش ولا يتلفظ إلا بمنكر القول وزوره.

وليحذر الآباء- كل الحذر- من أن يأمروا أولادهم بشىء، ثم

يفعلوا خلاف ذلك، فعلى سبيل المثال: لا يأمر الوالد ولده بالصدق وهو كاذب، ولا ينهاه عن شرب الدخان وهو يشربه، وكذلك الأم، لا يمكنها أن تأمر ابنتها بالحجاب وهى متبرجة[١٧٤]، ولا يمكنها أن تأمرها بالإحسان إلى الجار أو بصلة الرحم، وهى مسيئة للجيران قاطعة للأرحام، فإن مخالفة الأقوال للأفعال لا تجدى ولا تنفع، بل تؤدى إلى الفشل الذريع فى تربية الأبناء.

والطفلة الصغيرة، يجب على الوالدين تحبيب الحجاب إليها، حتى ترغب فى تغطية شعرها وبدنها، تشبهًا بوالدتها وبالنساء، والصغيرة إن كانت لا تأثم من كشف شعرها أو بعض بدنها، دون العورة المغلظة، قبل سن التكليف وهو البلوغ، ولكنها تؤجر على الحجاب مثل باقى العبادات التى تؤديها، وكذلك الوالدان يؤجران على تعليمها وترغيبها فى ذلك وفعله إن فعلته، ويأثمان، ولا تأثم الصغيرة، إن هما قصرا معها فى ذلك حتى تبلغ، ويحسن ألا نتركها حتى تكشف مفاتنها وتحب أن تظهرها مثل بعض الكبيرات، فالصغيرة فى سن ما قبل المراهقة والبلوغ، تحب النظر كثيرًا فى المرآة وتعجب بجسدها وشعرها، فإذا كانت قد تعودت الحجاب، فلا خطر من ذلك عليها، ولأن الضغط عليها فى هذه السن إن لم تكن لبست الحجاب قبله، يجعلها تبغضه ولا ترتاح إليه، وقد تتخلى عن لبسه إن أمكنها ذلك فيما بعد[١٧٥].

ثالثًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى المدرسة:

حض الإسلام على أن يكون الإنسان قدوة حسنة، ولاسيما فى موقفه كمعلم أو كمرب، ليقتبس من أخلاقه الحسنة ويقتطف من محاسنه، كما تقتطف الثمار الطيبة من الشجرة الطيبة.

فحذر الحق تبارك وتعالى من أن يكون الإنسان قدوة سيئة فى قوله أو فعله، فيأمر بالمعروف ولا يأتيه، أو ينهى عن المنكر ويأتيه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِّ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(الصف:٢-٣). وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، ثم أكد الإنكار عليهم بقوله:﴿كبر مقتًا عند الله﴾، أى عظم فعلكم هذا بغضًا عند ربكم ﴿أن تقولوا مالا تفعلون﴾، أى أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، أو تنهوا عن شىء ثم تفعلونه.

ويخاطب الحق أحبار اليهود، ومن على شاكلتهم من المعلمين أو من يقوم مقام المعلمين، فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤)، أى أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه[١٧٦].

وحث رسول الله ﷺ على القدوة الحسنة ورغب فيها، وحذر من القدوة السيئة ورهب منها، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، أن

رسول الله ﷺ قال: (من سن فى الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتبت عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شىء)[١٧٧]، فالقدوة الحسنة له مثل أجور من اقتدى به، والقدوة السيئة عليه من أوزار من اقتدى به، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[١٧٨]، وتكون الدعوة بالقدوة كما تكون بالقول أو بالفعل.

وقدم الإمام على رضى الله عنه نصيحته للمعلم، ولكل من ينصّب نفسه معلمًا أو إمامًا أو قائدًا للناس، بأن يكون قدوة حسنة لغيره بسلوكه وعمله... فقال رضى الله عنه: "من نصب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم"[١٧٩].

وفى ذلك قال الشاعر (أبو الأسود الدؤلى):

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالقول منك وينفع التعليم

لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم[١٨٠]

ودخل الشافعى مرة على أبى عبدالصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد، فقيل للشافعى: يا أبا عبدالله، هؤلاء أولاد أمير المؤمنين، وهذا مؤدبهم، فلو أوصيته بهم. فأقبل الشافعى على أبى عبدالصمد فقال له: ليكن أول ما تبدأ من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تركته..."[١٨١].

وهكذا، فليكن المعلم قدوة حسنة لطلابه ومتعلميه، لينال مثل ثواب وأجر كل من اقتدى به منهم، وليحذر أن يكون قدوة سيئة، حتى لا يكون عليه من الإثم والوزر مثل آثام من اقتدى به وأوزارهم... فالحسن عندهم ما استحسنه المعلم وسلكه، والقبيح عندهم ما استقبحه وتركه.

رابعًا: التربية الأخلاقية للأبناء بالقدوة الحسنة فى الرفقة الصالحة:

يلجأ الطفل منذ طفولته المبكرة، طفولة ما قبل المدرسة، إلى تكوين صداقات مع جماعة الأطفال للعب معهم. وتتزايد خلال فترة المدرسة الابتدائية رغبته فى الانتماء لجماعة ولرفقة من الأطفال،

ويكون لديه حرص ورغبة فى الحصول على تقبل هذه الجماعة له، ويتطبع بطباعها، لحاجة اللعب معهم والدراسة والنشاط المدرسى عمومًا، ويبدأ الطفل فى قضاء وقت أكبر خارج البيت، يقضيه مع جماعة الصحبة من الأطفال.

ولا ننكر ما لهذه الصحبة من أثر كبير فى طفل هذه المرحلة، لأنه يساير المعايير التى تحددها تلك الجماعة، وحتى يبقى له القبول فيها، ومن تلك الآثار الصالحة لاندماج الطفل فى مثل هذه المجموعات، أنه يتعلم التنافس والتعاون مع الآخرين، ويتحمل المسئوليات التى تكلفه بها مجموعته، كما أنه يتعلم مشاركة الآخرين مشاعرهم، ويتقبل حالات الفشل، أو النجاح معهم، وهذه الآثار لها أهميتها فى مستقبل حياته(١٨٢).

كما لا ننكر تأثره السلبى من قرناء السوء، ويجب ألا نتغافل عما يمكن أن يكتسبه الطفل من الصحبة الفاسدة وإذا ما ترك لقرناء السوء، فمن البديهى أن يتلقن منهم لغة اللعن والشتم والسباب، ومن الطبيعى أن يكتسب منهم بعضًا من العادات الفاسدة والأخلاق الذميمة؛ مما يقتضى تمام الانتباه وسرعة الاستجابة عندما تلوح بوادر سيئة على سلوكياته وأفعاله، والتدخل السريع لعلاجها والتخلص منها وتجنيبه مسبباتها.

لذلك، فليكن واضحًا لدى الآباء والمربين أن من أكبر العوامل

أثرًا فى تربية الأبناء رفقتهم التى بها يختلطون وبأخلاقهم يقتدون، فإن كانت قدوة حسنة ورفقة صالحة، حسنت أخلاقهم، وإن كانت خلطة فاسدة ورفقة سيئة، ساءت أخلاقهم... إذ (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[١٨٣]. أو كما قال عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد وجه الإسلام الحنيف الآباء والمربين إلى أن يراقبوا أولادهم ومتربيهم، ليعرفوا من يخالطون ومن يصاحبون، وإلى أين يغدون ويروحون؟ وإلى أى الأماكن يذهبون ويرتادون؟... لأن الكل راع والكل مسئول عن رعيته. كما وجههم إلى أن يختاروا لهم الرفقة الصالحة، ويشجعوهم على مرافقتهم، ليكتسبوا منهم الخلق الكريم، والأدب الرفيع، والعادة الفاضلة... ووجههم إلى أن يحذروهم من خلطاء الشر، ورفقاء السوء، حتى لا يقعوا فى حبائل غيهم وشباك ضلالهم وانحرافهم[١٨٤].

فمن توجيهات الحق سبحانه وتحذيراته من قرناء الشر ورفاق السوء وأخلاء الفساد، قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا﴾(الفرقان:٢٨-٣٠). وقوله كذلك: ﴿الأَخِلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف:٦٧).

كما وجه رسول الله ﷺ المربين والمتربين إلى اتخاذ الرفيق الصالح والجليس الصالح، وحذر من الرفيق السوء والجليس السوء، فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك) أى يعطيك (وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة. ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة)[١٨٥]. وفى رواية أنس رضى الله عنه: (... ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير، إن لم يصبك من سواده، أصابك من دخانه)[١٨٦].

فتفقد أيها الوالد، وتفقدى أيتها الوالدة، أحوال ولدكما، واسألا عن أصدقائه. فكم من ولد شرير يدعو إلى المنكر والفساد ويزين لأصدقائه الشرور والآثام، والصغير والمراهق يقلد فى كثير من الأحيان، وتجره الشهوات فى أحيان أخر، وكذلك حب المغامرة يعتريه ويجذبه[١٨٧].

وتفقدى أيتها الأم أحوال ابنتك، واسألى عن صديقاتها، فكم من بنت سارت فى طريق المنكر والفساد، بل وكم من بنت ضاعت وتمرغت فى الوحل بسبب ما زينته لها صديقات السوء.

واحرص أيها الأب واحرصى أيتها الأم على التعرف وعن قرب على أصدقاء ولدكما، واحرصا على أن يكون أصدقاؤه من الطيبين

الصالحين، ومن الأسر الطيبة كذلك... واحرصا أيضًا على إكرام أصدقاء ولدكما، حتى يسهل عليكما توجيههم وإرشادهم إلى الخير والصلاح، وإبعادهم عن طريق الغى والفساد... وتذكرا قول رسول الله ﷺ، فيما رواه عبدالله بن عمر: (ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[١٨٨]. وقوله فيما رواه عبدالله بن عمرو أنه ﷺ قال: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت)[١٨٩]. وضياع الأبناء بسبب سوء أخلاقهم أكبر خطرًا عليهم وعلى المجتمع من نقص قوتهم، فقد يجدون من يتصدق عليهم ويقوتهم.

قصص وعبر:

إليكم أيها الآباء وأيتها الأمهات، تلك القصص الثلاث[١٩٠]، علّنا نخرج منها بالعبر... لما للصديق الحسن من محاسن، فلنغتنمها، وما للصديق السوء من مساوئ، فلنحذرها.

القصة الأولى: "مصاحبة الجليس السوء لا تأتى إلا بسوء":

فاحرص أيها الأب على أن يصاحب ابنك أهل الصلاح، واحذر وحذر ابنك من مصاحبة قرناء السوء... وإليك القصة:

انضم خالد إلى حلقة تحفيظ القرآن الكريم، كان خجولًا هادئًا كثير الصمت نشيطًا فى الحفظ والمراجعة. أحب الجميع، وأحبه الجميع... يقول أستاذه (الأستاذ سليمان): لم نكن ننكر عليه أى

شيء، إلا شروده الطويل وتفكيره الساهم. فأخذته يومًا فى رحلة إلى شاطئ البحر، فلعل سره الكبير يلتقى مع هذا البحر الكبير، فيفرغ ما فى نفسه من هم، ويخرج ما فى روحه من ألم. ووقفت أمام هذا الفتى الصامت أمام هذا البحر الهادئ الصامت، المنظر كله صمت فى صمت. وفجأة يخترق هذا السكون الصامت صوت بكاء حار ونحيب مر. صوت خالد وهو يبكى. لم أشأ أن أقطع عليه لذة البكاء وطعم الدموع فلعل ذلك يريح نفسه، ويزيل همه...

وبعد لحظات قال: إنى أحبكم، أحب القرآن، وأهل القرآن الصالحين الطيبين؛ ولكن أبى يحذرنى دائمًا أن أمشى معكم، يخاف منكم، يكرهكم، دائمًا يبغضنى فيكم، ويستشهد على ذلك بقصص وحكايات وأساطير، لكن عندما أراكم فى الحلقة تقرؤون القرآن كنت أرى النور فى وجوهكم وفى كلامكم... ولما انضممت للحلقة شعرت بالسعادة واجتهدت فى حفظ القرآن. كانت أيامى ولياليى كلها قرآن... ولاحظ أبى التغير الذى طرأ على حياتى، عرف بطريقة أو بأخرى أننى دخلت التحفيظ ومشيت مع المطاوعة- وهم أصحاب اللحى والملتزمين بالشرع.

كانت تلك الليلة السوداء. كنا ننتظر حضوره من المقهى، كعادته اليومية لتناول العشاء، فدخل البيت بوجهه المظلم وتقاطيعه الغاضبة، وجلسنا على سفرة الطعام، الكل صامت كالعادة. كلنا

نهاب الكلام فى حضوره... ثم قطع الصمت بصوته الأجش الجهورى: لقد سمعت أنك تمشى مع المطاوعة، فانعقد لسانى وذهب بيانى، ولم ينتظر الإجابة... تناول إبريق الشاى، ورماه بقوة فى وجهى، ودارت الدنيا فى رأسى، وسقطت فحملتنى أمى... وصحوت من إغماءتى الخفيفة على يديها الدافئة، وإذا بالصوت الجهورى يقول: اتركيه، وإلا أصابك ما أصابه. فاستللت جسمى من بين يدى أمى وتحاملت على نفسى لأذهب إلى غرفتى وهو يشيعنى بأبشع الشتائم وأحط الألقاب... لم يكن يمر يوم إلا وهو يضربنى، يشتمنى، يركلنى، يرمينى بأى شىء يجده أمامه... حتى أصبح جسمى لوحة مرعبة اختلطت فيها الألوان الداكنة.

ويكمل خالد: كرهته، أبغضته، امتلأ قلبى بالحقد عليه، وفى يوم من الأيام ونحن على سفرة الطعام قال لى: قم ولا تأكل معنا. وقبل أن أقوم، قام هو وركلنى فى ظهرى ركلة أسقطتنى على صحن الطعام. تخيلت أننى أصرخ فى وجهه: سوف أقتص منك، سوف أضربك كما تضربنى، وأشتمك كما تشتمنى، سوف أكبر وأصبح قويًّا وسوف تكبر وتصبح ضعيفًا، عندها أفعل بك كما تفعل بى... ثم هربت وخرجت من المنزل، وأصبحت أجرى على غير هدى وبدون هدف، حتى ساقتنى قدماى إلى هذا البحر وأمسكت بالمصحف أقرأ فيه حتى لم أستطع أن أواصل من كثرة البكاء وشدة النحيب...

عندها- يكمل الأستاذ سليمان- نزلت من خالد بعض دموعه النقية. ولم أنبس بكلمة فقد ربط العجب لسانى، هل أعجب من هذا الأب الوحشى الذى خلا قلبه من الرحمة؟ أم أعجب من هذا الابن الصابر الذى أراد الله عز وجل له الهداية فألهمه الثبات؟ أم أعجب منهما الاثنين حين استحالت رابطة الأبوة والبنوة بينهما أشلاء وصارت علاقتهما كعلاقة الثعلب بالذئب والأسد؟ أخذته بيدى، ومسحت دموعه بيدى وصبرته، ودعوت له ونصحته ببر والده والصبر على أذاه، ووعدته بأن أقابل والده وأكلمه واستعطفه... ومضينا.

ومرت الأيام... وأنا أفكر فى الطريقة التى أفاتح بها والد خالد فى موضوع ابنه وكيف أقنعه، بل كيف أعرفه على نفسى... وأخيرًا استجمعت قواى وقررت أن تكون المقابلة فسرت إلى منزله، وطرقت الباب، ويدى ترتجف... ثم فتح الباب، وإذا بذلك الوجه العابس وتلك التقاطيع الغاضبة، فابتسمت ابتسامة صفراء لعلها تمتص نظراته السوداء... وقبل أن أتكلم أمسك بتلابيب ثوبى وشدنى إليه، وقال: أأنت المطوع (أى الشيخ) الذى تدرس خالدًا فى المسجد؟... قلت: ن،ع،م... قال: والله لو رأيتك تمشى معه مرة أخرى كسرت رجلك، خالد لن يأتيكم بعد الآن، ثم جمع مادة فمه وقذف بها دفعة واحدة فى وجه الفقير إلى الله، وأغلق الباب وكان ختامها مسكًا...

فمسحت عن وجهى ولحيتى ما أكرمنى به، ورجعت وأنا أسلى نفسى... رسول الله ﷺ فُعل به أكثر من ذلك، كذبه قومه وشتموه ورموه بالحجارة وأدموا قدميه، ووضعوا القاذورات فوقه، وطردوه وأخرجوه من أرضه...

ومرت الأيام والشهور، ونحن لا نرى خالدًا. فأبوه يمنعه حتى من الخروج للصلاة، ونسيناه فى غمرة الحياة... ومرت السنون. وفى ذات ليلة بعد صلاة العشاء فى المسجد، إذ بيد غليظة تمسك بكتفى... آه إنها ذات اليد التى أمسكت بعنقى قبل سنين... إنه الوجه نفسه، والتقاطيع نفسها، والفم نفسه الذى أكرمنى بما لا أستحق... ولكن هناك تغيرًا كبيرًا... الوجه العابس أصبح منكسرًا، والجسم هدته الآلام والهموم... فقلت: أهلًا يا عم، ورحبت به فانفجر باكيًا... سبحان الله، ما كنت أظن أن ذلك الجبل سوف يصبح يومًا سهلًا. فقلت: تكلم يا عم وأخرج ما فى نفسك، كيف حال خالد؟

فتنهد والد خالد بعمق وقال: أصبح خالد يا بنى ليس خالدًا الذى تعرفه، ليس خالدًا الفتى الطيب الهادئ الوديع... منذ أن خرج من عندكم تعرف على شلة من شلل الفساد يلهو ويلعب. بدأ بالدخان معهم فشتمته وضربته... لا فائدة فقد تعود جسمه على الضرب واستساغت أذناه الشتائم... كبر بسرعة، كان يسهر معهم ولا يأتى إلا مع خيوط الفجر، طرد من المدرسة، أصبح يأتينا ليلًا بلسان يهذى

ويد ترتعش... تغير ذلك الجسم الغض الطرى أصبح جسمه مهترئًا ضعيفًا، وأصبح وجهه أسودًا وعيناه حمراء كالنار، ذهب قلبه الطيب البار، واستحال قلبًا قاسيًّا كالصخر أو أشد... أصبح لا يمر يوم إلا ويشتمنى أو يركلنى، أو يضربنى... تصور يا بنى أنا أبوه يضربنى... ثم عاود بكاءه الحار، ثم مسح دموعه، أرجوك يا بنى زوروا خالدًا خذوه معكم، بيتى مفتوح لكم، بل إننى راض أن يعيش فى منازلكم وينام معكم، أرجوك يا بنى أقبّل يدك وألثم رجليك أرجوك، المهم أن يرجع خالد كما كان... ومضى فى بكائه ونحيبه وحسراته وتركته حتى أنهى ذلك كله، فقلت له: يا عم ذاك زرعك، وهذا حصادك، ورغم ذلك دعنى أحاول.

وبدأت محاولاتى مع خالد لرده إلى طريق الهداية والاستقامة، الذى انحرف عنه بتأثير الضغوط الرهيبة التى مارسها عليه والده الظالم القاسى... وبتأثير رفقاء السوء... وحاولت أن أقابل خالدًا بأى وسيلة، ولكنه كان يتهرب من مواجهتى بكل وسيلة ممكنة... بعثت له الرسائل والخطابات، تابعت على منزله المكالمات والاتصالات، انتظرته عند باب منزله الساعات تلو الساعات، بحثت عنه فى المقاهى وأماكن التجمعات... ولكن دون أن أظفر بمقابلته أو محادثته أو مواجهته... وفى ذات مرة، وبينما كنت سائرًا على قدمى فى أحد شوارع الحارة، إذ بى أواجه خالدًا أمامى... عرفته مباشرة، رغم

تغير ملامحه كثيرًا، وعرفنى هو على الفور، فحاول الهرب منى والتخلص من مواجهتى.

أمسكت يده بقوة، ضممته إلى صدرى، احتضنته إلى قلبى، كان موقفًا مؤثرًا مؤلمًا، لم يستطع خالد الصمود أمامه، فانفجر بالبكاء... ولم أتمالك نفسى أنا أيضًا، فأجهشت بالبكاء... بقينا على هذه الحال لدقائق، ثم أخذته معى إلى منزلى، جلسنا سويًّا لفترة طويلة، وحكى لى خالد كل ما جرى له بعد تركه لحلقة القرآن... وأن حاله قد تغيرت منذ أن فارقنا.

أخبرت خالدًا بأن والده هو الذى طلب منى أن آتيه، وأدعوه للعودة إلى حلقة القرآن الكريم فى المسجد، وأخبرته أن والده أصبح يحب الصالحين والمتدينين ودعوته إلى التوبة النصوح، فتحت له أبواب الأمل والرجاء فى رحمة الله تعالى، حثثته على العودة إلى المسجد والمصحف ومخالطة الصالحين...

طلبت منه وبإلحاح شديد أن يعود إلى درب الهداية والالتزام... ولما أكثرت عليه الإلحاح انفجر باكيًّا وهو يقول: صدقنى يا أستاذ سلمان إننى أتمنى أن أعود إليكم وإلى المسجد وإلى درب الهداية والاستقامة... ولكننى لا أستطيع ذلك... لا أستطيع... لقد دمر أبى بظلمه وقسوته وكراهيته للصالحين والملتزمين كل شىء جميل وسامٍ فى حياتى...

لقد أصبحت أعيش فى هذه الحياة بلا هدف كريم أو غاية نبيلة أسعى لتحقيقها والحصول عليها... لقد أصبحت لا أطيق الصبر عن المخدرات والأفلام والنساء والسهرات والسفريات...

لقد فات الأوان يا أستاذ سلمان... لقد انتهى كل شىء... فدعونى أسير فى هذا النفق المظلم حتى أصل إلى نهايته... والله أعلم ماذا ستكون النهاية؟

وقبل أن يفارقنى خالد نظر إلى نظرة حانية لطيفة وقال: أستاذ سلمان... ادع الله أن يغفر لى ذنوبى وجرائمى، وادع الله على أبى الظالم الذى قادنى إلى الهاوية... ثم انصرف خالد عنى والدموع تنحدر من مقلتيه، ولسان حاله يقول: هذا ما جناه أبى على، لا ما جنيته على نفسى...

انقطعت أخبار خالد عنى بالكلية بعد تلك الحادثة، وعلمت من أبيه أنه قد ازداد بعدها قسوة وغلظة وشراسة معه... وازداد ضلالًا وعنادًا وانهماكا فى المعاصى... وظللت أدعو الله له بالهداية والصلاح دائمًا.

وفى ذات ليلة مظلمة حالكة السواد، وقبل الفجر بقليل، خرجت من بيتى لشراء دواء لأحد أطفالى من إحدى الصيدليات المجاورة، وكان طريقى يمر على منزل خالد... فلفت نظرى وجود سيارات شرطة عند باب منزله، ترجلت عن سيارتى مسرعًا واتجهت إلى منزل

خالد لأستطلع الخبر... فلقيت أحد إخوة خالد واقفًا على الباب والدموع تنحدر من عينيه... سألته عن الخبر، فأخبرنى بالكارثة الفظيعة والمصيبة المؤلمة. لقد عاد خالد إلى البيت قرب الفجر، وكان مخمورًا سكران يهذى... طرق باب البيت بعنف، حاولت الأم أن تفتح له، ولكن أباه منعها من ذلك. استمر خالد يطرق الباب بقوة وعنف، فخرج له أبوه ليطرده عن الباب، ودخل الاثنان فى شجار وسباب مقذع... وشتم خالد أباه... وحاول أن يمد يده عليه بدون وعى أو شعور منه، وحاول الأب أن يدافع عن نفسه، فضرب خالدًا بعصا غليظة كانت معه على رأسه.

جن جنون خالد عندها، فأخرج سكينًا من جيبه، وهوى بها على جسد والده العجوز، وطعنه بها عدة طعنات متتابعة، سقط الأب على الأرض مضرجًا بدمائه... وأما خالد فقد ولى هاربًا... لفظ الأب أنفاسه الأخيرة فى المستشفى متأثرًا بالطعنات التى أصابت جسده... وأما خالد فتم القبض عليه وإيداعه السجن تمهيدًا لتحويله إلى المحكمة الشرعية ليواجه مصيره المحتوم... الموت.

فما أسوأه من زرع، وما أبشعه من حصاد، وما أقساها من نهاية مريرة دامية... فهل فهم الآباء والأمهات هذا الدرس جيدًا قبل فوات الأوان؟... فطريق الشر لا ينتهى إلا بشر، وطريق السوء لا ينتهى إلا بسوء.

القصة الثانية: "احذر أيها الفتى قرناء السوء".

هذه قصة مأساة نوردها لكم لعل الغافل ينتبه والعاصى يتعظ، إليكم القصة: شاب ميسور الحال، من أسرة كتب الله لها الستر والرزق الطيب والمبارك، يقول: منذ أن نشأنا ونحن نعيش سويًّا يجمعنا بيت كله سعادة وأنس ومحبة... أنا الثانى فى ترتيب الأبناء والأكبر من الأولاد... الكل يعول على كثيرًا... استمريت فى دراستى حتى وصلت الصف الثانى الثانوى وأختى سارة فى الثالث الثانوى...

تعرفت فى مدرستى على أصحاب كالعسل، وكلامهم كالعسل، ومعاملتهم كالعسل، بل وأحلى... صاحبتهم عدة مرات، ورافقتهم بالخفية عن أهلى عدة مرات، ودراستى مستمرة، وأحوالى مطمئنة وعلى أحسن حال، وكنت أبذل الجهد لأربط بين أصحابى وبين دراستى، واستطعت ذلك فى النصف الأول من العام الدراسى، وبدأت الأجازة ويا لها من أجازة... لاحظ أبى أن خروجى من البيت قد كثر، وعدم اهتمامى بالبيت قد زاد، فلامنى ولامتنى أمى، وأختى سارة كانت تدافع عنى لأنها كانت تحبنى كثيرًا وتخاف على من ضرب أبى القاسى.

استمرت أيام العطلة ولياليها... كنت أنا وأصحابى فى ملحق لمنزل أحد الشلة، وقد دعانا لمشاهدة الفيديو واللعب سويًّا... تبرع

أحد الأصحاب بإعداد إبريق من الشاى لنا حتى نقطع به الوقت، فأتى بالشاى وشربنا منه، ونحن نتحادث ونتسلى ونتمازج... ولكن بعدما شربنا بقليل أصبحنا نتمايل ونتضاحك ونتقيأ... ولا أدرى بما حدث حتى أيقظنا أول من تيقظ منا، فقام صاحب المنزل ولامنا وعاتبنا على ما فعلنا فقمنا ونحن لا ندرى ما حدث... فعاتبنا من أعد لنا الشاى، فقال: إنها مزحة مازحنا بها... خرجنا إلى منازلنا فدخلت بيتنا مع زقزقة العصافير، والناس نيام، إلا أختى سارة التى أخذتنى إلى غرفتها ونصحتنى وهددتنى بأنها آخر مرة أتأخر فيها عن المنزل، فوعدتها بذلك.

اجتمعت بعد أيام بالشلة عند أحدهم، وبدأنا نطلب إعادة تلك المزحة، لأننا أحببناها، فقال لنا صاحبنا: إنها تباع بسعر لا يقدر عليه الواحد وحده، فعملنا شراكة فاشترينا بعددنا كبسولات صاحبنا، أظنكم عرفتم أنها المخدرات، إنها مزحة بحبة مخدرات ونحن لا ندرى، دفعنا بعضنا إلى التهلكة بمزحة وضحكة بحبة من المخدرات، فاتفقنا على عمل دورية كل أسبوعين على واحد منا والحبوب نشتريها بالشراكة...

مرت الأيام وتدهورت فى المدرسة وأصبحت لا أطيق البعد عن المزحة ولا عن أصحابى، فجاءت نتائج نهاية العام مخيبة لكل آمال أهلى، ولكن خفف علينا أن سارة نجحت بتقدير عال، مبروك يا

سارة، ماذا تريدين أن أشترى لك بمناسبة نجاحك. أتدرون ما قالت؟ كأنها عرفت حالى وأصحابى... قالت: أريدك أن تنتبه لنفسك يا أخى أنت عندى بعد الله...

دخلت سارة معهد للمعلمات، وجدت واجتهدت، وأنا من رسوب إلى رسوب، ومن سيئ إلى أسوأ، ولكن أهلى لا يعلمون ونحن فى زيادة فى الغى حتى أننا لا نستطيع أن نستغنى عن الحبة فوق يومين. فقال لنا الصديق، بل العدو اللدود، بل الشيطان الرجيم: هناك ما هو أغلى وأحلى وأطول مدة وسعادة، فبحثنا عنه ووجدناه، فدفعنا فيه الكثير، وكل ذلك من جيوب آبائنا، الذين لا نعلم هل هم مشاركون فى ضياعنا؟ أم لا؟ وهل عليهم وزر وذنب؟ أم لا؟

وذات مرة وأنا عائد للبيت، أحست أختى سارة بوضعى، وشكّت فى أمرى، وتركتنى أنام، وجاء الصباح فجاءتنى فى غرفتى ونصحتنى وهددتنى بكشف أمرى إن لم أخبرها بالحقيقة، فدخلت أمى علينا وقطعت النقاش بيننا، وليتها ما دخلت، لأعترف لأختى، لعلها تساعدنى. أرسلتنى أمى لأشترى لها أغراضًا- أى طلبات- فذهبت، وأصبحت أتهرب من أختى خوفًا منها على ما كتمته لأكثر من سنة أن ينكشف.

قابلت الشلة وأخذنا نصيبنا من الإثم، وأخبرتهم بما حدث، فخفنا من الفضيحة وكلام الناس... فكرنا، بل فكر شياطيننا، وقال أحدهم

لى: لدى الحل... نجعلها فى صفنا... نجعل لها حبة، وتكون تحت أيدينا، ولا تستطيع أن تفضحنا أبدًا... فرفضت، إنها سارة العفيفة الشريفة الحبيبة الحنونة، إنها سارة أختى. ولكن وسوسوا لى وقالوا: هى لن تخسر شيئًا، أنت فقط تحضر لها الحبوب فى بيتكم وهى معززة مكرمة، وأنت تعرف ما أثر ذلك التأثير... وتحت تأثير المخدر وتحت ضغوط شياطينهم وشيطانى وافقت ورتبت معهم كل شىء... ذهبت للبيت وقابلتنى كعادتها، وطالبتنى بمعرفة أمرى، وقلت لها: اصنعى لى شايًا وأنا أعترف لك بكل شىء. فذهبت المسكينة من عندى وكلها أمل فى أن تحل مشكلتى... أتت بالشاى وقلت لها: صبى لى ولك، فصبت. ثم قلت لها: احضرى لى كأس ماء، فذهبت ومن ثم أخرجت حبة كاملة ووضعتها فى كوبها. جاءت المسكينة وهى تبتسم، وأنا أراها أمامى كالحمل الصغير الذى دخل غابة الذئاب بكل نية صافية... رأت دموعى، فصارت تمسحها وتقول: الرجال ما تبكى، وتحاول تواسينى تحسبنى نادمًا... قلت لها: اجعلينا نشرب الشاى حتى أرتاح ثم نتكلم، فشربت ويا ليتها ما شربت. أخذت أجرها فى الكلام حتى بدت تغيب عن الوعى، صرت أضحك مرة وأبكى مرة، وبدأ إبليس يوسوس لى أنى خلاص سأنكشف وأبى وأمى سيعلمون إذا رأوا أختى بهذه الحالة، ففكرت فى الهرب. المهم هربت لأصحابى وبشرتهم بالمصيبة التى فعلتها،

فبارك لى جميع الأصحاب، أقصد الأعداء، وقالوا ما يفعلها إلا الرجل، أنت الأمير، وأنت الزعيم، وأنت صاحب الشلة والآمر الناهى ونحن على قولك.

صار أصحابى يسألوننى ويقولون: نحن أول الناس معك فى علاجها، وبسيطة ما دامت حبوبًا فقط. وبعد يومين بدأ أبى يسأل عنى بعدما انقطعت عنهم، فأرسلت أصحابى ينظرون الوضع فى البيت كيف هو، لأنى خائف من والدى وعلى أختى، فطمأنونى أن كل شىء تمام ولا حصل شىء. فذهبت إلى البيت وأنا مستعد للضرب والشتم والسب والملام الذى ما عاد يفيد... فضربنى أبى ولامتنى أمى، ولامنى إخوتى وهددونى.

وبعد أيام أتت إلى أختى وسألتنى عن شىء وضعته لها فى الشاى أعجبها، وتريد منه، ورفضت، فصارت تتوسل إلى وتقبل رجلاى، مثل ما أنا أفعل مع أصحابى عندما أطلب منهم الحبوب، فأعطيتها، وتكرر هذا مرات كثيرة. وبدأت أحوالها الدراسية تتدهور، حتى تركت الدراسة بلا سبب واضح لأهلى، فصبروا أنفسهم بأن البنت ما لها إلا بيتها فى النهاية. فتحولت الآمال إلى أختى الأصغر منى...

ومرة- ويا أبغضها من مرة- انتهت البضاعة من عندى. طلبتها من أحد أصحابى، فرفض إلا إذا... أتدرون ماذا كان شرطه؟...

شرطه أختى سارة، يريد أن يزنى بها، فرفضت، وتشاجرت معه، وأصحابنا الحاضرون يحاولون الإصلاح ويقولون لى: ما فيه شىء، مرة واحدة ما تضر، اسألها إذا هى موافقة، ماذا يضرك، وما أنت خسران شىء... صاروا معه ضدى، كلهم معه، وقلت له: أنت أول واحد كان يقول لى: أنا معك فى طلب دوائها وعلاجها، واليوم تطلب كذا... حسافة- أى حسرة- بالصداقة، فقال بالفم المليان: أى صداقة، وأى علاج يا رجل، إنس كل شىء...

تخاصمنا، وقاطعت الشلة، وطالت الأيام، وصبرت أنا، وبدأت أختى تطلب وأنا ما عندى، ومالى طريق إلا هم. وأختى حالتها تسوء، وضاع كل مالها، وتطالبنى ولو بكسرة حبة... فوسوس لى الشيطان بأن أسألها إذا وافقت لا أحد يخسر شيئًا، ولا أحد يعلم، أنت وهى وصاحبك فقط، واطلب منه أن يواعدك ما يقول لشخص آخر وأجعله سرًا... فصارحتها وقلت لها: الذى عنده يريدك أنت ليفعل فيك، ثم يعطينا كل الذى نريد بدون مال ونرجع ولا عاد نحتاج لأحد مرة... فقالت مباشرة وبلا تردد: موافقة، هيا بنا نذهب.

خططنا أنا وأختى لنخرج... فخرجنا، وذهبت بأختى إلى صاحبى، صاحب السوء، وجلسنا فى شقته، وطلب منى أن أقضى مشوارًا حتى ينتهى... فذهبت وأتيت إليهم بعد ساعة، وإذا بأختى

شبه عارية فى شقة صاحبى وأنا مغلوب على أمرى، وأريد ولو رائحة هيروين، فجلسنا سويًّا أنا وصاحبى وأختى من الظهر إلى ما بعد العشاء فى جلسة شرب وعهر...

رجعنا أنا وأختى إلى البيت ولا كأن شيئًا صار، فصرت أقول لأختى: هذه أول مرة وآخر مرة، وأنا لم أكن أعلم أن صاحبى النجس أعطى أختى مواعيد وأعطاها أرقامه الخاصة إذا أرادت ما تحتاج إليه، وأنا ما علمت.

ومرت الأيام، وأنا أرى أختى تخرج على غير عادتها سابقًا، وبأى عذر، مرة للسوق، ومرة للمستشفى، حتى أنها طلبت تسجل مرة ثانية بالمعهد. حاول أبى المسكين بكل ما يملك وبكل من يعرف حتى يرجعها من جديد، وفرحت العائلة من جديد بعودتها للدراسة واهتمامها بها مرة أخرى...

وذات مرة، وأنا عند أحد أصحابى، طالبنى بزيارة صاحب آخر لنا، ذهبنا إليه، ويا للمصيبة، وجدت أختى عنده وبين أحضانه، وانفجرت من الغضب، فقالت أختى: ما لك شغل، حياتى وأنا حرة فيها... أخذنى صاحبى وأعطانى السم القاتل- أى المخدر- الذى ينسى الإنسان أعز ما يملك وكل ما يملك، ويجعله فى نظره أنجس الأشياء وأرذلها. فرجعنا لصاحبنا وأختى معه، ولعبوا مع أختى، وأنا بينهم كالبهيمة، بل وأسوأ...

ومع العصر، رجعنا للبيت، وأنا لا أدرى ما أفعل، فالعرض قد ذهب، والمال قد ذهب، والشرف قد ذهب، والمستقبل قد ذهب، والعقل قد ذهب، وكل شيء بالتأكيد قد ذهب... ومرت الأيام وأنا أبكى إذا صحوت من السكر، وأضحك إذا سكرت،... حياة بهيمية، بل أردى، حياة رخيصة، سافلة، نجسة...

ومرة من المرات المشئومة، وكل حياتى أصبحت مشئومة، وفى أحد الأيام وفى الصباح وعند التاسعة، إذا بالشرطة تتصل على أبى فى العمل ويقولون: احضر فورًا، فحضر، فكانت الطامة التى لم يتحملها أبى... فمات بعدها بأيام، وفقدت أمى النطق بسببها، أتدرون ما هى؟ أتدرون؟ لقد كانت أختى برفقة شاب، فى إحدى الاستراحات خارج المدينة، وهما فى حالة سكر، وحصل لهما حادث وتوفى الاثنان فورًا...

يا لها من مصيبة، ويا لها من نهاية مأساوية يا سارة، لم تختاريها ولم تتمنيها أبدًا... سارة الطاهرة أصبحت عاهرة، سارة الشريفة أصبحت زانية، سارة الطيبة المؤمنة أصبحت داعرة... ماذا فعلت أنا بأختى، إلى هذا الدرب أوصلتها، وبيدى إلى اللعنة دفعتها، وإلى السمعة السيئة أوصلتها... إنها مظلومة، وأنا الذى ظلمتها، وأنا الذى أبعدتها عن الطريق المستقيم، وهى لم تكن تعلم... كانت تريد صلاحى فأفسدتها، لعن الله المخدرات وطريقها وأهلها... أبى مات-

كما قلت- بعد أيام، وأمى فقدت النطق من ذلك اليوم، وأنا لا زلت فى الطريق الأسود، وإخوتى على شفا حفرة من الضياع والهلاك.

بعدها بفترة فكرت أن أتوب، فاستأذنت من أمى لأسافر إلى الخارج، بحجة النزهة لمدة قد تطول إلى أشهر، بحجة أنى أريد النسيان. فذهبت إلى مستشفى الأمل بعد أن هدمت حياتى وحياة أسرتى وحياة أختى سارة.

عزمت على العلاج، وذهبت إلى المستشفى، ولما سألونى عن التعاطى، زعمت أنه من الخارج، وأن تعاطى المخدرات كان فى أسفارى... وبعد عدة أشهر تم الشفاء مما أصابنى من المخدرات، ولكن بعد ماذا... بعد ما قطعت كل حبل يضمن لنا حياة هانئة سعيدة، عدت وإذا بأهلى يعيشون على ما يقدمه الناس لهم. لقد باعت أمى منزلنا، واستأجرت آخر، من بعد الفيلا، إلى شقة بثلاث غرف، ونحن ثمانية أفراد، ومن بعد العز والنعيم ورغد العيش إلى الحصير ومسألة الناس وشظف العيش... لا علم ولا تعليم ولا شهادة ولا عمل. وإخوانى أصغر منى، ونصفهم ترك الدراسة لعدم كفاية المصاريف، وأهلى متى ذكر اسم أختى سارة لعنوها وسبوها وجرحوها لأنها السبب فى كل ما حصل، ودعوا عليها بالنار والثبور. وقلبى يتقطع لأنها مظلومة، وعلى أهلى لأنهم لا يعلمون الحقيقة، وأنا لا أستطيع أن أبلغ عن أصحاب الشر والسوء الذين هدموا حياتى

وحياة أختى وأبى وأمى وأهلى، لأنى إذا أبلغت عنهم سأزيد جروح أهلى التى لم تندمل بعد على أختى وأبى وأمى وسمعتنا وعزنا وشرفنا... لأنهم سيعلمون- ساعتها- أنى أنا السبب، وستزيد جراحهم، وسيورطنى- حتمًا- أصحاب السوء معهم إن بلغت عنهم...

انظروا يا إخوانى ويا كل الناس... ماذا فعلت أنا، إنها المخدرات ونزوات الشيطان، إنها المخدرات أم الخبائث، إنها الشر المستطير... كم أفسدت من بيوت، وكم شردت من بشر، وكم فرقت من أسر... بل قولوا فى الأصل: إنها رفقة السوء.

القصة الثالثة: "اسمع لأهل الخير والصلاح وصاحبهم ليخلصوك من طريق الشيطان":

كان شابًا مسرفًا على نفسه بالمعاصى والآثام... ومن كثرة معاصيه كان لا يتوانى عن فعل أى معصية... يتعاطى المخدرات، ويرتكب الفواحش... بل وصل به الأمر أنه كان يضرب أمه وأباه... ولما استحالت العشرة بينه وبين أسرته، جعلوا له غرفة فى السطح يعيش فيها وحده بعيدًا عنهم.

وفى يوم من الأيام، يتعاهد أربعة من الإخوة الصالحين أن يأتوا إلى هذا الشاب العاصى لينصحوه... فيصعدوا إلى غرفته، فيجدوه سكرانًا فاقد العقل، فجلسوا معه وحاولوا أن يكلموه، لكنه لا يشعر

بهم... جلسوا معه حتى أفاق قليلًا، ثم بدأوا يذكروه برحمة الله وبالجنة والنار، فإذا به يبكى ويقول: والله ما سمعت مثل هذا الكلام من قبل، فأريد أن آتى معكم.

فذهبوا به معهم، وكانوا فى سفر خارج مدينتهم، ونزلوا فى أحد المساجد، وكان هذا الشاب معلنًا توبته إلى الله... لكنه كان ما يزال يعانى من أثر المخدرات حتى أنه صاح فى الليل: قوموا فاربطونى بالحبل فإنى أخاف أن أخرج تحت تأثير الحاجة للمخدر لأبحث عنه... قالوا له: هيا نذهب بك إلى المستشفى، قال: لا بل اربطونى... فربطوه ربطًا شديدًا ومع ذلك استطاع أن يتخلص من قيده، وجلس يبكى من شدة الألم.

واستمر على هذه الحالة خمسة عشر يومًا، وهو يعانى من ألم التخلص من المخدرات... لكنه صادق فى توبته... نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدًا... وبعد الخمسة عشر يومًا أراحه الله من آثارها... وذهبوا به إلى المستشفى، ولما أجريت الفحوص والتحاليل، فإذا بالطبيب يقول: لا يمكن أن يكون هذا الشاب قد تعاطى المخدرات قبل ذلك.

ومكث هذا الشاب ثلاثة أشهر غائبًا عن أهله... أما أهله فلم يسألوا عنه، لأنهم يئسوا منه فظنوا أنه قبض عليه، أو أنه مات فى حادث ليستريحوا من أذاه.

وبعد الثلاثة أشهر وإذا به يذهب إلى منزل أسرته، ويقرع الباب، فتفتح أمه الباب لترى ابنها الذى اختفى منذ ثلاثة أشهر... تراه وقد تغير وجهه وزادت هيئته بهاءً وجمالًا ووقارًا، فأقبل على أمه ليعانقها ويقبل رأسها ويبكى، ويطلب منها أن تسامحه، فقالت أمه: سامحتك يا بنى.

طلب الشاب من أمه طعامًا، فقامت الأم لتعد له الطعام... فقام الشاب وكبر للصلاة وركع ورفع وسجد وأطال السجود... وجاءت أمه بالطعام لترى ولدها ساجدًا، فأخذت تبكى من شدة الفرح بهداية ولدها... لكن ابنها أطال السجود ثم أطال السجود... نادت عليه فلم يجبها... فحركته فإذا به قد مات ساجدًا... مات الشاب الذى كان فى غاية الإجرام والفساد وهو ساجد...

وهكذا حولته صحبة الخير والصلاح من طريق الفساد، إلى طريق الهداية، ومات موتة ترضيه وترضى أهله، وترضى الله قبل كل الجميع.

خامسًا: وسائل الإعلام وما تقدمه من قدوات وأثرها على الأخلاق:

وسائل الإعلام شأنها شأن الجليس الصالح، إن كانت صالحة وما يبث فيها وما ينشر من خلالها صالحًا، وشأنها شأن الجليس السوء، إن كانت سيئة وما يبث وينشر من خلالها سيئًا.

فوسائل الإعلام يمكنها أن تقدم القدوة الحسنة التى يتأسى بها

الأبناء وبها يقتدون، وهى بذلك خير جليس وخير أنيس، وتكون بذلك وسيلة من وسائل البناء الأخلاقى. كما يمكنها أن تقدم القدوة السيئة التى يتأسى بها الأبناء وبها يقتدون، فتكون بذلك وسيلة من وسائل الهدم الأخلاقى.

فإن كانت وسائل الإعلام داعية إلى الخير والمعروف، لا تطرد معها الملائكة من البيت والمجالس بل تقبل إليها وتحفها، والخير من ورائها عميم... فنعمّا هى، إن كان يستمع فيها إلى القرآن الكريم وتفسيره، وإلى الحديث وفقهه وأصوله فهى خير للمستمعين، وإن كان يُبث فيها ما هو نافع فى الدنيا والآخرة: من أمور الاقتصاد أو السياسة أو الصحة أو المعاملات أو نحو ذلك، فالحمد لله ولنقبل عليها حينئذ، ما لم ننتهك فيها محرمات. وإن كان دون ذلك، فالله لا يحب الفساد، ولا ضرر ولا ضرار، والسمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا.

وإن كانت داعية إلى الشر والفساد فبئس ما هى... فخطرها فى كثير من البلدان عظيم، وضررها جسيم. وكم من خلق قد ساء بسببها، وكم من فاحشة قد ارتكبت بسببها، وكم من ابن قد عق أبويه، وكم من صديق قد غدر بأصدقائه، وكم من امرأة خانت زوجها، وكم من زوج قد طلق زوجته، كل ذلك بسببها... بل وكم من رجل وكم من شاب وقع على محرم من محارمه بسببها والعياذ بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله...كم فيها من إضاعة للصلوات، وكم فيها

من اتباع للشهوات، وكم فيها من تهييج على الفواحش، وكم فيها من تزيين للباطل، وسخرية من الإيمان وأهله والدين ومن اعتنقه[١٩١].

فاحذروا أيها الآباء وأيتها الأمهات من أن يجلس أبناؤكم مع جليس السوء منها... واحذروا من أن يعلق الولد فى حجرته صور الفتيات العاريات أو شبه العاريات وصور الفنانات والممثلات... واحذروا من أن تعلق البنت فى حجرتها صور الفتيان المخنثين وصور الفنانين والممثلين... واحذروا أن يشاهد أولادكم القنوات الفضائية الخليعة، وأن يدخلوا على مواقع النت المشبوهة...

واحذروا أيها الآباء وأيتها الأمهات من أن يطالع أبناؤكم الكتب والمجلات الخليعة وما بها من صور ومناظر مثيرة، وما بها من قصص وروايات مؤججة للشهوة، أو محرضة على الفاحشة والمنكر، وما بها من أفكار مسمومة تحض على الرذيلة... وتذكروا أيها الآباء قول رسول الله ﷺ: (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[١٩٢].

وليتذكر القائمون على وسائل الإعلام، المقروءة والمسموعة والمشاهدة قول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص من آثامهم شيئًا)[١٩٣].

هوامش الفصل الثالث

(١٦٥) مسلم (٢٣١٠).

(١٦٦) مسلم (٧٤٦)، السيوطى (٦٨٣١)، الألبانى [صحيح أبى داود (١٢١٣)].

(١٦٧) مسلم (١٠١٧)، الترمذى (٢٦٧٥)، النسائى (٥/ ٧٦).

(١٦٨) مسلم (٢٦٧٤)، الترمذى (٢٦٧٤)، أبوداود (٤٦٠٩)، الألبانى (١١٠٤) [الصحيحة (٨٦٥)].

(١٦٩) البخارى (٥٩٥).

(١٧٠) البخارى (٨٦٦)، مسلم (٥٤٤).

(١٧١) مسلم (١٢٩٧)، أبوداود (١٩٧٠)، النسائى (٥/ ٢٧٠)، السيوطى (٧٢٢١).

(١٧٢) أبوداود (١٢٤).

(١٧٣) أبوداود (١٣٧).

(١٧٤) أ- عبدالله ناصح علوان: **تربية الأولاد فى الإسلام**، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر، ط٣٨، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٤١.

ب- محمود المصرى: **الزواج الإسلامى السعيد**، القاهرة، مكتبة الصفا، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ص٨٦٤-٨٦٦.

(١٧٥) محمد حسين: **تربية الأولاد فى الإسلام**، الإسكندرية، دار الدعوة، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص١٦٥.

(١٧٦) محمد على الصابونى: **صفوة التفاسير**، القاهرة، دار الصابونى، ط٩، د.ت، ص٥٥.

(١٧٧) مسلم (١٠١٧)، الترمذى (٢٦٧٥)، النسائى (٥/ ٧٦).

(١٧٨) مسلم (٢٦٧٤)، الترمذى (٢٦٧٤)، أبوداود (٤٦٠٩)، الألبانى (١١٠٤) [الصحيحة (٨٦٥)].

(١٧٩) على بن أبى طالب: مرجع سابق، ص٤٧٢.

(١٨٠) ابن رجب الحنبلى: **لطائف المعارف**، دار الجيل، ص١٣، فى: أحمد فريد: **التربية على منهج أهل السنة والجماعة**، الإسكندرية، الدار السلفية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص٣٠٢.

(١٨١) محمود المصرى: **ساعة وساعة نوادر وعجائب**، القاهرة، مكتبة الصفا، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٢٧٠.

(١٨٢) محمد حسين: مرجع سابق، ص ص١٢٠-١٢١.

(١٨٣) الترمذى (٢٣٧٨)، أبوداود (٤٨٣٣)، الألبانى (١٠٤٧) [الصحيحة (٩٢٧)].

(١٨٤) عبدالله ناصح علوان: مرجع سابق، ص٩٨.

(١٨٥) البخارى (٥١٠٨)، مسلم (٢٦٢٨)، أبوداود (٤٨٢٩)، المنذرى (٤٤٧٩)، الألبانى (٩٣) [الصحيحة (٣٢١٤)].

(١٨٦) أبوداود (٤٨٢٩)، النسائى (١/ ٢٣٧)، المنذرى (٤٤٨٠).

(١٨٧) مصطفى العدوى: **فقه تربية الأبناء وطائفة من نصائح الأطباء**، المنصورة، دار ابن رجب، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص١٥٧.

(١٨٨) البخارى (٣٢٨) (٢٣٦٨)، مسلم (١٨٢٩).

(١٨٩) أبوداود (١٦٩٢)، السيوطى (٦٢٣٧)، [حسن: الإرواء (٨٩٤)].

(١٩٠) محمود المصرى: **الزواج الإسلامى السعيد**، مرجع سابق، ص ص١٧٢-١٧٨، ٢٩٢-٣٠٠، ٣٢٠-٣٢١.

(١٩١) مصطفى العدوى: مرجع سابق، ص ص١٦١-١٦٢.

(١٩٢) البخارى (٢٣٦٨)، مسلم (١٨٢٩).

(١٩٣) مسلم (٢٦٧٤)، الترمذى (٢٦٧٤)، أبوداود (٤٦٠٩).